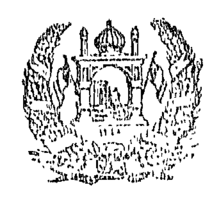


مكتب الصحافة والاستعلامات بالسفارة الملكية الأفغانية بمصر

أثر الإسلام في العلوم والفنون

محاضرة السيد صلاح الدين سلجوقي
سفير أفغانستان بمصر

ألقاها بدعوة من إدارة العلاقات العامة فى المؤتمر الاسلامى العام
مساء يوم الأربعاء ٢٣ شعبان ١٣٧٥ (٤ إبريل ١٩٥٦)

فى قاعة المحاضرات بالغرفة التجارية المصرية

مطبعة امين عبد الرحمن بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

آنساتى ، سيداتى ، وسادتى . وفى الدين : بناتى ، أخواتى و إخوانى :

يقولون إن الإسلام جاء فى عصر مظلم كان على فترة من العقيدة والفكر والعمل . وفى الحقيقة إن الإسلام جاء فى حينه ، فى زمن كان دوامة للأفكار والعقائد المتضاربة والمتضادة ، و إعصاراً للأعمال المختلفة الاتجاه .

ما هو الإله ؟ وما علاقته بالعالم ؟ وما هى النسبة والقرب والبعد بين الطبيعة وما بعد الطبيعة . هذه كلها من الأمور التى تحدد أسس الفلسفة .

ما هو الدين ؟ هل الدين رابطة سرية خفية من العقيدة والتأمل بين الإنسان و بين الله ؟ أم هو موسوعة ضخمة من المسئوليات النظرية والعملية ، الفردية منها والاجتماعية على ضوء المبادىء عند الله وعند الضمير وعند الشرائع وعند المجتمع ؟

ما هو الإنسان بكيانه وخلقه وذاته ؟ هل هو ثنائى التركيب مؤلف من الخير والشر ؟ أم هو خير بفطرته والشر طارىء عليه ، مما يعين المبادىء للعلوم القانونية ؟

ما هى المعرفة ؟ هل هى ذاتية صرفة أو موضوعية بحتة . وما هو الفكر ؟ هل نستدل من الجزئى إلى الكلى ومن المعلول إلى العلة ، أم بالعكس مما يوجه السير والكسب للعلوم ؟

وما هو الفن ؟ هل الفن تقليد للطبيعة ومحرك للغرائز ؟ أم هو مثالى يشير إلى الحقيقة و يعبر عن المثال ، ونقد وفى نفس الوقت جبران للطبيعة والمحيط والحياة ؟

هذه كانت أسئلة مصدرها اليونان والرومان والإسكندرية و إنطاكية والقيروان و بلخ

و بنارس ، وموجهة إلى كل شخص يفكر في الحياة ، وكانت هـــذه المسائل تشغل باله وتوقعه فى الحيرة والتشويش . لقد كانت تلك الأفكار المتخالفة المتضاربة ، بحدودها النهائية ، تدخل في الأذهان وتتعارض ، الواحدة مع الأخرى ، وتترك فى الأذهان تناقضاً ، وتخلق من ذلك تردداً وحيرة وشكا ولاأدرية وفوضى فى العقائد والمثل ، وتقضى على سلوك الأفراد والمجتمع .

* * *

فى أزمنة ما قبل الإسـلام كان الإله إما مظهراً من قوة طبيعية أو حيوية أو نموذجاً لجمال إنسانى . وهذه المظاهر كانت ممثلة فى أكمل أو أجمل فرد من نوع الإنسان أو الأنواع الحيوانيـة . وكان الإله بطبعه و بطابعه الطبيعى والحيوانى مظهراً رائعاً للغرائز ومشاركا مع الشعب فى العواطف الغريزية ، وحتى فى الرذائل الفردية والاجتماعية . وكان هـذا الإله جزءاً من الشعب يشاركهم فجورهم وتقواهم . فـكان بمثابة راية لهم فى حروبهم ، وآبدة فى نسـكهم وأعيادهم . وهـذا الإله عندهم كان أشد اعتصاماً بالعصبيات القومية وأشـد ميلا للهجمات والغارات على الأقوام الآخرين .

وحتى اليهود ، فى دينهم الذى حرّفوه وغيّروا الـكلم عن مواضعها ، يزعمون أن إلههم هو الذى يوحى إليهم الغدر والتزوير والتمسك بكل ذريعة كى يفتـكوا بكل الشعوب التى ليست من أصلهم (غوييم) ، حتى تحل إسرائيل محلهم . فهم بزعمهم يتخيلون إلههم أشـد تمسكا منهم بتقاليدهم الغاشمة والمتجاوزة ، وأنه أكثر منهم عداء ولدداً للبشرية .

ومع أن سقراط وأفلاطون وأرسطو حاولوا جاهدين أن ينزّهوا الالوهيـة ، وأن يرفعوها فوق مستوى الطبيعة والمـادة والغرائز ، إلا أنهم فشلوا في إكمال التوحيـد وفى تطهير حظيرة القدس من شوائب الشرك والمـادة .

فإذا لم تـكن هنالك وحـدة فى الأمر ووحدة فى الإسناد ، فلا يمـكن أن تـكون

وحـدة فى المبادىء والنواميس . كما أنه إذا لم تكن هناك وحدة فى الخالق فلا يمكن أن تكون وحـدة أو اتساق بين أجزاء الـكون . فالشرك يحدث الفوضى فى علاقتنا بالنظام الطبيعى والأدبى ويفقد روح الاتساق فى عالمى المـادة والمعنى .

ثم جاء الإسـلام برسالته بأن الله تعالى واحد أحد ، فرد صمد ، مبرأ من المـادة والمقولات ، متعال عن النقائص والرذائل ، وعن التغير والنهاية ، وله أسمـاء حسنى ، وكل واحد من هذه الاسماء المقدسة العاملة يتصرف نحو جهة من جهات الـكون المادى والأدبى . مثلا إن الله الواسع العليم يتصرف بوسعته نحو ناحية الطبيعة المترامية الأطراف والتى تسـير طبقا للنظام الطبيعى ، كما يتصرف بعلمه نحو ناحية الشعور التى تجرى طبقاً للنظام الأدبى .

إن الميتافزيقيا (ما وراء الطبيعة) عند أمم ما قبل التاريخ كانت تحت سقف الطبيعة . وكان الإله فرداً من نوعه ولـكنه فرد بكر أضخم جسما وأشد بطشاً وفتـكا . وعندما جاء اليونان البارعون فى العلم لا شك فى أنهم رفعوا صرح الميتافزيقيا إلى درجة أعلى بكثير مما كانت عليه ، ولـكنهم لم يقدروا أن يرفعوه عن جوّ تتنفس فيه الأنواع وتطير فيه الغرائز .

وعندما أنشئت المدرسة المصرية الإسـكندرية (الأفلاطونية الحديثة) زعم أفلوطين Platinus أن الميتافزيقيا (ما وراء الطبيعة) بعيـدة غاية البعـد عنا ، وأنه ليس فى متناول أى مشعر من مشاعرنا الوصول إليها ، وأنهـا وراء خيالنا وقياسنا وظننا ووهمنا . مع أن الله تعـالى قريب يجيب دعوة الداعى ، بل أنه أقرب من حبل الوريد . فهذا الفـكر كان فى ناحية من الإفراط ، بجانب الذين فرطوا ووضعوا (ما وراء الطبيعة) تحت سقف الطبيعة .

فالإسلام فرّق بين المشاعر الإنسانية ، واعتقد بأن الفـكر إذا كان يتردد فى مسالك المـادة ويستقر فى الدماغ فإنه بعيد كل البعد عن إدراك عالم الألوهية ، وأنه إذا كان العقل يستمـد من الحـدس Intuition ويستنير من الضمير ويقتبس من الوحى والإلهـام

و يستوى على عرش القلب ، فإن الله تعالى يتجلى فيه (لا يسعنى أرضى ولا سمائى ، ولـكن يسعنى قلب المؤمن) .

فالله سبحانه وتعالى فى عالم الإطلاق لا تدركه الأبصار ولا أى مشعر من المشاعر البشرية . ولـكنه تعالى على عرش صفاته المقدسة وأسمائه الحسنى التى كل واحد منها مبدأ من مبادىء النظام الطبيعي والناموس الأدبي — يُدرَك بالشعور الإنسانى ، كما أنه بمظاهر تجلياته فى الآفاق والنفوس يدرك أيضاً بالأبصار .

فتنزيه المـلأ الأعلى لما فوق الطبيعة يوجد فينا مركزاً سامياً لأفـكارنا وتصوراتنا يرفعنا بها إلى سماء منزهة عن المـاديات والمنافسات المادية والشعبية . و باقتراب ذلك العالم لقلوبنا وباتحاده مع شعورنا يخلقان فينا شوقاً وحباً للعالم الإلهى ، ويصبغان حبنا وعواطفنا بصبغة مثالية ، ويقربانذا حباً من مبادئنا السامية ، و بالتالى من النواميس الطبيعية والأدبية ، و يجمعاننا بالحب مع محيطنا الطبيعى والاجتماعى .

كما أن توحيد المبـدأ الأول للـكائنات الطبيعية والحيـة والشعورية يجمع بين مبادئنا وأهدافنا ، و يربط بين أجسـادنا وأرواحنا ، وبين غرائزنا ومُثُلنا ، ويخرجنا عن ثنوية الخير والشر وتثليث الطبيعة والحياة والشعور ، وهما (أى الثنوية والتثليث) اللذان يخلقان الفوضى فى الأفـكار والمبادىء والسلوك .

* * *

أما الدين ، فـكان عند الأمم السالفة نماذج من آثار الفن تقدم مع القرابين عند أثر فنى آخر منحوت أو منقوش على الجدار أو السقف . فالإله كان ديباجة لمجموعة طبائع هذه الأمم وحرزاً لغرائزها . وكانت العبادة قصيدة تتلوها المعازف ، ومديحة لغرائز أقوى وأشد حيوية من غرائزها . وحتى أن إله كل قبيلة كان أكثر عـداء للقبائل المجاورة لها وأشد فتـكاً بها . وكانت الميتافزيقيا عندها هى الحد النهائى والمبالغ لطبيعتهم الغرائزية . ولا شك

فى أن الأديان السماوية بتواليها وتسلسلها أصلحت ناحيـة كبيرة من الدين ولطفت جو ما وراء الطبيعة إلى حد ما ، ولـكن ليس إلى الحد الذى هو موجود الآن عنـدنا معاشر المسـلمين . حتى اليهود بدينهم المحرف الذى يدينون الآن به توجد لديهم آيات محرفة بأن إلههم غضب عليهم عندما انحرفوا عن إرادته وعصوا أمره فى قتل أهل القرية عن بكرة أبيهم .

وأما عندنا ، فالحقيقة بذاتها وحدة لها ثلاثة مظاهر هى الحق والخير والجمال . فـكل ما لدينا من حركة فـكرية يجب أن يقود إلى الحق . وكل ما بين أيدينا من عملية سـلوك يجب أن يـكون هدفها وغايتها الخير . كما أن كل ما يوجه أبصارنا و إحساساتنا وعواطفنا يجب أن يتوجه إلى جميل .

فالدين عندنا موسوعة تضم أبواب الإرادة والفـكر والقول ، وفصول العمل والصنع والسلوك . وكل هـذه ينبغى أن تتوجه إلى غاية هى الحق أو الخير أو الجمال ، سواء كانت تلك الإرادة والقول والعمل من الفرد أو من المجتمع .

فالدين عنـد الأمم السالفة كان سريرة بين الشخص و إلهه ، اللهم إلا فى الأعياد أو الحروب . فان فى تلك الاحتفالات كان الإله لا أكثر من راية أو آبدة ، ممثلا لإرادة الشعب . فالفرد كان مع إلهه فى داخل المعبد فى أوقات مخصوصة ، يثنى على بطشه وغرائزه الجبارة ، وفيما عدا هذين الميقاتين (الزمنى والمـكانى) لم تـكن للفرد أية علاقة بالألوهية :

ومن جهة أخرى كان الفرد موظفاً على أن يتبـع بعض المبادىء الخلقية كالشجاعة والسخاء والشـكر على الإحسان والوفاء بالعهد . وهـذا كان تـكليفاً خلقياً فردياً ، بينما لم يكن المجتمع مكلفاً بأى مبدأ . ومع أن أفلاطون جاهد كثيراً كى يقترب من فراش السياسة المريضة ويدخلها فى مصحة المبادىء الخلقية ، ولـكن اليهود فى العهود السابقة ، والاستعماريين فى القرون الأخيرة ، أحبطوا هـذه المحاولات الإنسانية من جانب العقل أو الإلهام

وأحلوا السياسة ، وبعبارة أخرى ، أحلوا « أخـــــلاق المجتمع » دار البوار .

ولـكن الإسـلام قرر بأن كل ما ينبعث من مبدأ الحياة أو الشعور الإنسانى ينبغى أن يتوجه على ضوء المبـادىء المنتزعة من صفات الله تعالى إلى غاية ما من الخير أو الحق أو الجمال . وهذا لا يتقيد بأى زمان أو مكان ، سواء كان من الفرد أو من المجتمع . فالمجتمع عند الإسـلام مكلف بالمبادىء التى يتـكلف بها الفرد . وليست عند الإسـلام المجتمع سياسة خارجة عن المبادىء الخلقية للفرد .

فالمجتمع كالفرد ينبغى أن يؤمن بالمبادىء ، مبدأ الخير ومبدأ الحق ومبدأ الجمال ، وأن يؤمن بالله العزيز المتعال ، وألا يشرك به أحداً ، وألا يعبـد غيره ، وألا يخضع لحول غير حول الله ، ولا لقوة غير قوته تعالي ، و إلا لجلال الشرع والنواميس المقتبسة من الحق والخير والعدل التى هى من صفات الله (قل يا أهل الـكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينـكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله) .

فالفرد أو المجتمع الذى يخاف غير الله ، أو يطمع فى غير الله ، ليس مسلماً كامل الإيمان ، كما أن الفرد أو المجتمع إذا شذ عن مبادىء الحق والخير والجمال والعدل وتجاوزها إلى غيرها من أضدادها لا يـكون قد دخل فى السـلم كافة . وليس بأحسن من ذلك فرد أو مجتمع يتحمل ذل العبودية ووزر الظلم بسبب أنه لا يعتقد بموجوديته ومواهبه ولا يعتمد على نفسه و بالنتيجة ، لا يؤمن بحول الله تعالى وقوته .

ولذا فالمسـلم ، سواء فى ذلك الفرد أو المجتمع ، الذى هو من خير أمة ، هو الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنـكر ويجادل الظالم كى يمنعه من ظلمه ، ويعارض مع المظلوم ويوبخه على خضوعه وخنوعه لحول أو لقوة ليسا من الله تعالى .

فتوحيد الله معناه توحيد المبـادىء وتوحيد النواميس وتوحيد الـكون ، والوفاق بين الجسـد والروح ، و إنشاء حب بين المحيطين الطبيعى والاجتماعى ، و إيجاد مركز مثالى

لعواطفنا وغرائزنا وميولنا ، بغية تنظيم شخصيتنا و بنـاء كعبة خالدة تتوجه نحوها انجذاباتنا ونزعاتنا من الخوف والطمع الهائمين فى سباسب الحرص وفيافى الأمل الـكاذب .

فالفرد أو المجتمع فى الإسلام لا يخضع لفرد أو لمجتمع مثله ، عن خوف أو عن طمع ، لأن للعبد المحروم من الحرية سلاسل خارجية وأغلالا داخلية . أما الأغلال الداخلية فهى الخوف والطمع الذاتى المعندى . وهى تصيّر العبد عبداً بكل معنى الـكلمة . وهذا هو القيد الحقيقى والرق المعنوى . لقد كان لقمان حراً لأنه لم يكن مصفداً بالأغلال الداخلية ، ولو أنه كان محسو باً من العبيد بسبب سلاسله الخارجية .

* * *

كان الثنويون من المجوس وعبـدة النار وبعض فلاسفة اليونان يعتقدون أن الإنسان بطبعه مزدوج من الخير والشر ، وأن الـكون مركب من عنصرين متضاربين ، من النور الذى يشـير إلى الخير ومن الظلام الذى يقود إلى الشر . وكانت الحياة عندهم صراعاً بين الخير والشر ، كما أنه كان على الإنسان عندهم أن يتخذ جانب الخير ويجادل الشر .

ومع أن كفة الخير كانت راجحة عندهم ، إلا أنه كانت لديهم عنصرية قوية بل وقدسية للشر . وكان من أنواع الإجلال للشر الاعتراف بموقعه الإلهى والخضوع له وتقديم القرابين له . ولقد كان هذا سبباً لحيرة الفـكر وفوضى العقائد والاعتراف بكيان الشر .

ولـكن الاسلام يعتقد بعدم جوهرية الشر . فالخير والحق والجمال هى مُثُـل ثلاثة تمثل حقيقة قدسية موحدة . والشر والباطل والقبح عبارة عن وضع الشىء فى غير موضعه . فالشر بالذات لا وجود له فى قاموس الاسلام . وأكبر شر عند الاسلام هو الشيطان ، ولـكن ليس له حول ولا قوة إذا لم تتحد معه النفس الانسانية . ولقد كان الشيطان يوماً معلماً فى الملأ الأعلى ، ولـكنه عندما ترك المبادىء وشـذّ عن النواميس الخلقية صار شراً

لأنه ترك موقعه الحقيقي . كالنار تصبح شراً إذا تركت موقعها وسرت في أثاث البيت ، وتكون خيراً إذا هي بقيت في مكانها من الموقد .

فالله سبحانه وتعالى هو مصدر كل حي ومنشأ كل شيء . منه نشأت الطبيعة ونبعت الحياة وانبثق الشعور . وليس شيء في العالم المادي أو المعنوي إلا وهو منبعث من الله الذي هو أصل الخير وعين الحق و ينبوع الجمال . ولهذا فإن لنا أن نعامل كل شيء بفكرة الحق وعمل الخير ونظرة الجمال . كما أنه ليس هناك شر نعبده أو نحترمه ونخضع له . وإذا كان هناك شيء يظهر شراً ، فليس لنا أن نقلعه أو نقوّض بنيانه ، بل إن علينا أن نصلحه ونخرجه عن الظروف التي صيّرته شراً . ولذا فالشر عندنا لا يدفع بالشر وإنما بالخير . قال تعالى (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك و بينه عداوة كأنه ولي حميم) .

لقد كان الخير والحق والجمال عند سقراط هي الأقانيم الثلاثة التي تمثل الحقيقة القدسية الموحدة . وعندما جاء أفلاطون اعتنق هذه المبادىء واعتقد أن مثال الخير هو أقوم المثل . وسار ارسطو والعلماء الملهمون على نهج هذه السنّـة السنية . كما أن عيسى عليه السلام أمضى على هـذه الوثيقة الإلهية . وعندما جاء خاتم الرسل محمد بن عبد الله صلوات الله عليه تقبل هـذه السنة بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وجعل منها لأتباعه شرعة ومنهاجاً ، وختم على هذه الوثيقة العقلية والإلهامية بخاتمه الخاتم ، وبذلك أتم مكارم الأخلاق .

ولـكن مع الأسف جاء جرمي بنتام ، وستيوارت ميل ، وجيمس ميل ، وشذوا عن هذه السنّة وحذوا حذو المدارس الشاذة لليونان ، وهي التي كانت اللذة عندهم المبدأ السامي للأخلاق والقوانين . ولـكن بنتام وستيوارت استبدلا باللذة شيئاً أخسّ منهـا وأرذل ، وجعلا النفع مبدأ بدلا من اللذة . وكان الاستعمار حينذاك قد أرسى سفنه في جهات

المعمورة . ورأى أن هذا المبدأ النفعى يؤيد مطامعه الاستعمارية ، ولهذا أيده وهلل له، فأحلّ المنفعة محل الخير ، وهى التى نشأ منها الاستعمار والاستثمار .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نبغ سبنسر الذى استعرض مبادىء النشوء والارتقاء الحيوانى فى حظيرة القدس للأخلاق ، واتخذ من التنازع للبقاء والانتخاب الطبيعى و بقاء الأنسب مبادىء للفلسفة الخلقية . ومن هذه الفكر نبع مبدأ التفوق القومى . وهنا حلّت القوة محل الحق ، كما أقامت المدرسة النفعية ، المنفعة مقام الخير ، ووقع ما وقع فى العالم من تشنجات واختلافات وحروب باردة وحامية أغرقت العالم فى بحر من التشويش فى عهد كنا نرجو فيه أن تصل سفينة الحياة إلى شاطىء آمن سعيد .

ومن جهة أخرى إن لمبادىء القوة والمنفعة طبيعة أنانية تؤيد الفردية التى كانت منذ خمس وعشرين قرناً تتعارض والاشتراكية . فكان أفلاطون يؤيد الاشتراكية ، بينما تلميذه ارسطو كان ينظر إلى جهة الفردية للفرد أكثر من الاشتراكية فى الفرد . ولما جاء سيدنا عيسى عليه السلام حذت الكنيسة حذو ارسطو وأيدت الفردية . وعندما طغت الفردية ، قام أتباع مزدك فى بلاد فارس بطغيان آخر معارض للفردية الطاغية .

عندما جاء الإسلام ، وضع المسلم حداً وسطاً بين الفردية والاشتراكية (وكذلك جعلنا كم أمة وسطاً) . هذا هو المقام الحقيقى للشخص الإنسانى . فالإنسان يفكر فرداً و يعمل مجتمعاً . إن له حقه ونصيبه ، ولكنه مع هذا هو جزء من المجتمع . هو المجتمع والمجتمع له . لا تتصادم فرديته مع مجتمعه، كما لا يتصادم مجتمعه مع فرديته . يكمّل شخصه كى يكمل المجتمع ، و بالتالى إذا كمل المجتمع ارتقى الفرد وسعد .

ولما شاعت المدارس النفعية والتنازعية ، وقويت فكرة الفردية ، وعم الاستعمار والاستثمار ، واشتدت النزعة القومية ، وأصيب العالم بنوبة التوتر ، أفضت هذه المبادىء المعتلة المفرطة إلى عكس العمل المعتلّ المقابل لهذه المبادىء ، أعنى الاشتراكية المحضة المفرطة .

ولا شك فى أن هذه الاشتراكية المفرطة ستقود بعكس عملها إلى فردية مطلقة معتلة أخرى كالوجودية ، لأن الأفكار عندما تتجاوز معيارها الوسط تقع فى أرجوحة نوسانية بين طرفى الإفراط والتفريط ، بحركة لا انقطاع لها .

إن السعادة الحقيقية لبنى البشر تكون عندما تتحد مبادىء الخير والحق والجمال فى الحقيقة ، وتتمثل الحقيقة في هذه المبادىء ، فتكمل إحداها الأخرى ، لا فى المنفعة والقوة اللتين هما سبب التفرقة والنزاع و بث الغرائز وبعث الفتن . وتكون السعادة إذا كان الشخص وسطاً بين الفردية والاشتراكية ، بمعنى أن تعيش الفردية والاشتراكية جنباً إلى جنب فى نفس الشخص بسلام ووئام دون أن تتعارض الواحدة مع الأخرى .

* * *

إن المعرفة فى الإسلام مجموعة من الموضوعية والذاتية . فمثلا يظل الصائم ممسكا إذا كانت الشمس محجوبة عنه حينما هو تحت الشجر ، ويفطر الذى يراها من فوق الشجر . ومن جهة أخرى إن حقائق الأشياء ثابتة عند الإسلام . فأصحاب الكهف كانوا فتية آمنوا بربهم وزادهم هدى . ومع أن معرفة بعضهم بالزمن كانت موضوعية ، ومعرفة البعض الآخر كانت ذاتية ، وإذا لم يكن الشخص فرداً بحتاً أو مجتمعاً صرفاً ، فلا شك فى أن معرفته ينبغى أن تكون بين الموضوعية والذاتية . إن المسلم لا ينكر حقيقة الأشياء ، كما أنه لا ينكر قوام ذهنه وأجزائه المختلطة بالمعلومات .

وطريقة الاستدلال عند المسلمين فى المنطق وفى العلوم هى طريقة الاستقراء ، أى تحرى الكلي من الجزئى ، والعلة من المعلول . أما فى الفلسفة (فلسفة الخلق والجمال) فالاسلام يتبع على الأكثر طريقة التعليل من المسبِّب إلى المسبَّب . ولهذا فالاسلام في عالم هذه الفلسفة مثالى محض ، كما يلى :

لقد كان أفراد الأمم الخالية ينتزعون فكرة العالم الالهي من مراسمهم وقياداتهم

ومحافلهم . كانوا ينحتون آلهتهم على أشكالهم، و يطبعونها بملامحهم ، و يظهرون فى تقاطيعها غرائزهم وانفعالاتهم وعواطفهم . كانوا يخلقون شبحاً من أنفسهم الطبيعية لا يتميز عنهم إلا فى شدة الانفعالات ومبلغ الغرائز ، و يتخذونه إلها لهم. بينما الله سبحانه وتعالى عند المسلم هو واجب الوجود ، أزلى أبدىّ ، مجرد عن المادة ومبرأ عن المقولات .

فإذا ما آمن المسلم بذات الله تعالى و بصفاته الحسنى فإنه يحاول جاهداً أن يرى نفسه بنوره تعالى وأن يتخلق بأخلاقه . فحينما يرى الله عليما يجاهد فى أسفار العلوم ، وحينما يراه حكيما يسعى إلى التوفيق بين علمه وعمله ، وحينما يراه سميعاً بصيراً يحاول أن يوقظ مشاعره ويجاهها للبحث عن حقائق الأشياء ، وحينما يراه عزيزاً يسعى إلى العزة والكرامة ، وحينما يراه خالقاً يرتكز قواه فى الصنع والعمل والانتاج . وحينما يراه رازقاً يميل إلى السخاء والكرم وعمل الصدقات . وحينما يرى الله غنيا حميداً يأبى على نفسه أن يكون ماديًا حقيراً مذؤوماً مدحوراً .

وحينما ينظر المسلم إلى فعل الله تعالى يرى أن فعله مستمر لأجل الفعل نفسه وليس لغرض من أغراضنا السياسية أو النفعية ، ولا إرضاء لأحد ، أو برغم شخص آخر . مثلا إن الله تعالى يخلق لأنه خالق ، و يرزق لأنه رازق ، و يغفر الذنوب لأنه غفار ، و يتوب على من يشاء من عباده لأنه تواب . فليس هنالك من وراء الخلق والرزق والغفران والتوابية أى غرض . ولذا فإن العبد المسلم المؤمن هو الذى يؤدى وظيفته لأجل الوظيفة نفسها و يستمر فى أداء واجبه الدينى والوطنى والانسانى لأنه واجب دينى ووطنى و إنسانى . لا لغرض آخر (نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه) . ورحم الله القديسة رابعة العدوية التى كانت تعبد الله تعالى لا خوفاً من عذابه ولا طمعاً فى جنته ، ولكنها تعبده لمجرد العبادة وأداء الواجب .

إن المسلم يحاول جاهدا أن يتبع سنة الله تعالى فى أعماله ، وأن يتخلق بأخلاقه تعالى

فى سلوكه . فسنّة الله جل وعلا تفتح أمامنا النظام الطبيعى الذى ينبغى أن نراعيه ، كما أن أخلاقه عز شأنه تقودنا إلى القانون الأدبى الذى ينبغي أن نؤمن به . فدائرة الكون منقسمة إلى قوسين ، قوس نزولى من الله إلينا ، وهو القانون الطبيعى ، وقوس صعودى منا إلى الله ، وهو القانون الأدبى . وهذا هو مقامنا المحمود ، مقام (قاب قوسين) .

فالله تعالى هو مثلنا الأعلى فى العلوم القانونية Normative Sciences وفى الفنون المستظرفة . فهدفنا من السلوك مثلا أن نتخذ من صفات الله أسوة حسنة لأعمالنا كى نقترب من كمالنا المثالى وزلفى عنده . كما أن الجمال عندنا مثالى محايد من الغرائز ، ومظهر رائع من جمال الحقيقة . وجمال الفن عندنا عبارة عن خلق و إنتاج عالم يكون أقرب إلى المثال بالنسبة لنا .

* * *

وما هو الفن عند الإسلام ؟ إن أول محاولة من البشر للتقرب من عالم الألوهية جاءت عن طريق الفن ، فى وقت لم تكن فيه لشخصية إلههم براعة تغاير بالذات من طبيعة أفراد النوع ، ولم تكن لهذه البراعة صبغة من التجرد والخلود والوجوب واللانهاية ، بل كانت البراعة فى القوة والشدة والصلابة والعضلات المفتولة والغرائز الحية . ولذا كان فن النحت — نحت التماثيل — الركن اليمانى فى كعبة الفن . فالمجسمات المنحوتة كانت هى الانتاج الفنى الذى كان فى إمكانه أن يعبر عن الكمال والجمال الطبيعى والغرائزي بأبعاده الثلاثة . مثال ذلك تمثال الزهرة Venus الفتاة القبرصية الحسناء ــ كما سماها هوميروس . فقد كانت أجمل تمثال لفتاة فى أحسن تقويم جسدى يمكن أن يوجد فى النوع . وكذلك كان فن الشعر والبيان فى آخر قائمة الفن ، لأن كمال الجسم لا يظهر فى أى شىء أحسن من ظهوره فى مرآة طبيعية جسمانية ، لا سيما إذا كانت رخامية .

ولما اتسعت آفاق الشعور البشرى ، وارتقى جوّ ما بعد الطبيعة ، دخلت فى قاموس

الفاسفة كلمات أمثال: الوجوب، والقدم، والسرمدية ، والتجرد ، والاطلاق ، واللامتناهى . وبدأ الملأ الأعلى يتسامى فى سرادق التجرد والتنزه عن شوائب الهيولى والطبيعة . وفى حظيرة فوق الماهية Identity والهوية Entity ، وفوق الحدود والرسوم والمقولات . عند ذاك بدأت التماثيل المنحوتة تظهر عجزها عن تمثيل صفات وتأملات بعيدة كل البعد عن المادة وعوارضها .

همت بالبدر فى علياه أتمثله ظننته منذ بدا فى الأفق إياك
ألفيته حجراً والنور مكتسب فليس يبلغ فى علياه علياك

فهل يمكن لتمثال الزهرة الذى نحته فيدياس أن يتحدث عن الجمال المثالى الذى هو ثالث الأقانيم للحقيقة، والذى يتحد مع الخير ومع الحق، والذى قال عنه أفلاطون إنه توأم لجمال العلوم والأفكار وجمال الأعمال الصالحة ؟ كما أنه من المستحيل لتمثال، ولو كان منحوتاً من فولاذ، أن يعبر عن قوة تخلق عوالم المادة والأدب ، وعن قوة تسن قوانين الطبيعة والحياة ونواميس الأدب والأخلاق ، وعن قوة هى مجردة ومطلقة ، وواجبة أزلية أبدية لامتناهية .

لقد رأيت تمثالا لأفلاطون . ولا أنكر أنى رأيت فيه بعض الملامح الفزيونومية من من الذكاء والتأمل . ولكنى لم ألمح عليه أثراً من مُثُله المجردة ، ولا رمزاً من أفكاره السماوية ، ولا إشارة إلى آثاره الخالدة ، وإذا لم يمكن للتماثيل أن تمثل فرداً من أفراد نوعنا ، فكيف يمكن لها أن تعبّر عن موجود متمكن فى سرادق القدُس ومتقنع بقناع التجرد والاطلاق والتنزه والوجوب والسرمدية .

ولكنى فى الحقيقة رأيت أفلاطون .. رأيته بميزاته التى كوّنت شخصيته العظيمة. رأيته أكثر مما رآه كثيرون من أبناء حيّه المعاصرين له . فقد رأيته فى (جمهوريته) ، وفى كتبه أمثال جورجياس ، و بروتوجراس ، وفيدون ، وغيرها .

وهذا دليل حق على أن الاسلام قلب قائمة الفن رأساً على عقب ، ووضع فن الشعر

والبيان والأدب فى مقدمة القائمة ، لأن بحر التفكر الزاخر ، ومحيط التأمل الفائض ، و بسيط القلب الذى لم يخلق الله عالماً أوسع منه ، لا يمكن أن تصاد حيتانها الماردة الشاردة العارية من أى ملامس حسية وملابس عادية ، إلا بشص « القلم » وشبكة « مايسطرون »

فالله تعالى الذى هو فوق الهيولى والصورة ، وفوق الجنس والفصل ، وفوق الحد والرسم وفوق القياس والفكر ، لا يمكن أن يتجلى فى شعبة من شعاب الفن أحسن منه فى « القلم وما يسطرون » .

« هو الله الذى لا إله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » .

فالرائد والقائد لشعبات الفن عند الاسلام هما فن البيان وصناعة الشعر . ولا غرو فإن من البيان لسحراً و إن من الشعر لحكمة . ولا شك فى أن الشعر قبل الاسلام كان أجمل ما يكون وصفاً للطبيعة وتغزلا بجمالها ، بل لقد كان أروع تمثيلا للطبيعة من تمثال (الزهرة) ، ولكن هذه الروعة الشعرية كانت فى عكاظ ، حيث كانت الهيولى هى الجنس المتداول ، وكانت الصورة هى النقد الرائج ، وفى محفل كان سطح ما بعد الطبيعة دون سقف مظلة يجلس فيها الأعشى .

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا
مشعشعة كأن الحص فيها إذا ما الماء خالطها سخينا

إن هذا الشعر الرائع يشعر بالولع بالخمر وملازمة القدح ، ويبالغ فى وصف صفاء المدام ورقتها ، ولكن فى غمرة من الغرائز ومهرجان من العواطف .

ثم لنستمع إلى الشاعر الاسلامى الصوفى الكبير عمر بن الفارض وهو يترنم فى شعره قائلا:

رق الزجاج ورقت الخمـــر وتشابهـــا فتشاكل الأمر
فكأنمـــا خمـر ولا قدح وكأنمـــا قدح ولا خمر

نرى أنه لم يقتصر فى هـذا الرباعى على وصف الخمرة الصافية و إعجابه بها ، بل وصف الـكأس بأروع من وصفه لها ، وكذلك جمع فى جرعة واحدة من الشعر المـادة والمعنى ، حتى جمع العالم الطبيعى وعالم ما بعد الطبيعة ، كما جمع القانون الطبيعى والناموس الأدبى ، والجسم والروح وكل ذلك فى أسلوب موجز، سهل ممتنع ، تعجز عنه كتب الفلسفة ودروس الفلاسفة ، و بطريقة لا تحط بـ « ما وراء الطبيعة » ولا تنزل بها إلى سطح الطبيعة ، بل بالعـكس ترتفع بها عن سطح الطبيعة وتجعله مظهراً رائعاً لمـا « وراء الطبيعة » كما يعتقد سبينوزا .

وفى هـذا الرباعى غموض أوضح تفسيراً من كل تعبير ، بأن للعالم الطبيعى مظاهر وتجليات من الحقيقة والجمال الحقيقى .

و إذا كنت أحاول شرح هذين البيتين بطريقة أدبية أو فلسفية ، فمن الطبيعى أننى بذلك أشوّه وجه الشعر وهندام البيان ، لأن فى غموض الشعر إشارات أشد بلاغة من كل إفصاح وكل شرح أو تفسير . وفى هذا يقول ابن على :

يا قوم إنّا من حىّ ليـــلى قوموا نفـارق تيما وطيّـــا

إن (حىّ ليلى) عند الشاعر الصوفى هو العالم المجرد الروحى والمثالى ، وليس فيه سعير الغرائز الداعية إلى الصراع والنزاع ، ولا ثوران العواطف الطبيعية المؤدية إلى العنف والشدة . و (حى بنى تيم) هو عالم الهيولى، و (بنى طى) هو عالم الطبيعية ، وهما العالمـان اللذان يدعوان إلى الحظوظ الغليظة ، و إلى التنافر والضغينة .

و إن الشاعر فى هـذا البيت من الشعر يشوّق زملاءه كى يعيشوا فى مستوى أخلاقى يسمو عن المنازعات المادية والمنافسات الجاهلية واللذات الحسية والغليظة والتعصبات الدنيئة

السافلة ، ويحاول أن يهيىء لهم نفساً مطمئنة في ذاتها ، راضية مرضية من الخالق والمخلوق .

* * *

بعد الشعر والبيان فى القائمة يأتى التغنى . وفى التغنى كما ذكر « جوته » إشارة غامضة إلى الحقيقة . وإن إلهام التغني لأشد غموضاً ، وبالتالى أكثر عمقاً، من الغموض الشعرى . ولهذا فالتغنى يجتذب السامع أكثر من الشعر .

ولكن الموسيقى تحرك النفس في أى رتبة كان موقفها من هذه المواقف . فهناك النفس الغرائزية ، والنفس المنظمة المطمئنة ، والنفس الاجتماعية ، والنفس العالية التى يقول البعض بأنها النفس الميتافيزيقية . ولذا فإن الفقهاء ينظرون إلى الموسيقى بالنسبة إلى المستمع إليها وإلى درجة نفسه فى النفوس .

أما الصوفيون فينظرون إلى التغنى كفن مثالى يقود إلى المثال ويشير إلى الحقيقة وفى هذا يقول ابن على الصوفى :

يا لائمى فى حب الغوانى لعذرتنى لو أبصرت ميّا
من ذكر ميّ عذب لسانى فليذكرنها من كان عيّا

إنه يشير إلى أن الذى له معرفة بالحقيقة ، يكون له إلمام بالتغنى ، كما يشير إلى أن التغنى يجلو السريرة ويروّح عن المرء أعباءه المادية . وفى هذا يقول «جوته» : هلموا إلى الفن .. فهناك تجدون ملجأ آمناً . ولكن إذا كان الفن مثالياً ، فلا شك فى أنه يكون أكثر جمالا وآمن ملجأ من العلم والفلسفة، لأن العلم والفلسفة يكشفان عن الفكر والدماغ، بينما الفن المثالى يكشف الذهن ويشرح القلب السليم .

* * *

بعد ذلك يأتى فن التعمير ، وكما أن الفكر الإسلامى فى الشرق الأوسط وفى آسيا الوسطى جمع بين فكرة الشرق والغرب ، فكذلك فن التعمير الاسلامى جمع بين التدوير الشرقى والتزوّى الغربى .

كانت العمارة عند الشرق عبارة عن أشكال طبيعية مستديرة يدور حولها البصر دون أى تعب أو تحريك وكانت هـذه الأشكال تلهم الطمأنينة وتمركز الحواس ، ومن ناحية أخرى كانت تتفق مع فكرتى الزمان والمكان عنـد الشرقيين الذين كانوا يعتقدون بأن الزمان مستدير أيضاً كالمكان ، وهذه الفكرة كانت السبب فى عقيدة التناسخ .

وفى الغرب كان شكل التعمير متزوّيا ، أى ذا زوايا ، وكانت الأشكال معقدة وخليطاً من المثلثات والمربعات والزوايا الحادة والمنفرجة . وبالطبع كانت هذه الأشكال تحرك النفس وتبعث فيها رغبة التحرى والتفحص والمجاهـدة على أساس أكثر مادية . فهذه الموسيقى الجامدة (ونعنى بها فن التعمير) ، بعكس الموسيقى ، لا تشير إلى الحقيقة ، وإن كانت فى بعض الظروف عنـد الشرقيين أشارت إلى بعض الحقائق ، كالأهرام مثلا التى تشير إلى الخلود .

ولكن الإسـلام جمع بين الاستدارة والتزوى ، لأنه أراد أن يصبـغ التأمل الذاتى العنـدى بصبغة من الموضوعية ، كما أنه بدّل التماثيل بالرسوم . لأن الرسم كما يشير إليه « هيجل » أقرب للمثال بالنسبة للتمثال المنحوت . لأن للتمثال ثلاثة أبعـاد ، بينما للرسم بعدان فقط . وكذلك بدّل الإسـلام الرسم من محاكاة الطبيعة إلى خدمة الأدب والتعبير عن المعانى ، فأوجد أنواعاً جديدة من الخطوط ورسم كتابات رائعات تحلى متن البيان وتـكحل عين الشعر ، وتتحد مع تقاطيع التعمير ، وتعبر عن المثال بطريقة أقوم وأقصر .

وعندما آمن الرسم بالإسـلام ، ترون أنه هجر التماثيل المنحوتة ووقف بجانب البيان والموسيقى وفن التعمير ، وأصبح موسيقى ساكنة غير جامدة . وكذلك آمنت الموسيقى بالقرآن المجيد ، وعندما نستمع إلى تلاوة آى الذكر الحكيم من المقرىء الكبير نور الدين محمـد رفعت طيب الله ثراه ، نشعر بأن رنات صوته السماوى تخاطب الحقيقة ، وأن متلوّاته

الخالدة تصعد مستقيمة إلى مثالنا الأعلى وترفعنا صعداً إلى معراجنا الأقصى ومقامنا المحمود .

يقول ارسطو متبعاً بذلك سلفيه أفلاطون وسقراط : إن الفن هو تقليد للطبيعة . ويذهب أفلاطون إلى أبعد من ذلك، فيقرر أن الموجودات الطبيعية نسخة وتقليد عن المثل، كما أن الفن نسخة وتقليد عن الموجودات الطبيعية . فالفن حسب عقيدة أفلاطون يكون أبعد وأحط من المثال بمرتين . و إذا كان الفن عبارة عن تقليد الطبيعة ، فينبغى أن يكون الرسم الفوتوغرافى أروع إنتاجاً للفن ، مع أنه ليس فناً ، بل هو عمل ميكانيكى وتفاعل كيماوى . و إذا كان الفن تقليداً ، فلماذا نرسم الطبيعة على لوحة جامدة ، مع أن الطبيعة أمام نواظرنا ، بحياتها ، وجمالها ، وتجليها .

فالفن عندنا ليس تقليداً للطبيعة بل هو نقد للطبيعة وجبيرة للحياة .

إننا قبل أن ندخل فى حياتنا المدنية ، كانت غرائزنا فى ذلك الحين فى نشاط قوى وصراع عنيف لجلب الغذاء واجتذاب الجنس الآخر، وللدفاع عن النفس والعائلة . ولكن بعد انتشار أسباب المدنية لم يبق لدينا عشر معشار هذا النشاط وذلك الصراع الدائمين . ففى حياتنا المدنية نجد الغذاء والجنس الآخر تحت سقفنا العائلى ، كما أن رجال الأمن والجيش يدافعون عنا ونحن نائمون مستريحون آناء الليل وأطراف النهار . فهل نامت الغرائز وخمدت جذوتها وانقطع نشاطها ؟ كلا . إن الغريزة لاتنام ولا تخمد ولا ينقطع نشاطها ، ولكن عندما أصبحنا فى غنى عن مجموعة كبيرة من نشاطنا الغرائزى ، توجهت هذه المجموعة المهملة إلى ناحية العلوم والفنون وتسامت إليها . فهذه العلوم والفنون هى عملية متسامية مجبرة لنشاط هذه الغرائز المهملة والمدخرة عندنا .

مثال ذلك ، أن بقايا غريزة الفحص عن الغذاء قد تسامت إلى العلوم الاستقرائية . و بقايا غريزة الخصام والدفاع عن النفس تسامت إلى الفنون العسكرية وأنواع المباريات . وما بقى من قوة شاغرة للغريزة الجنسية تحوّل إلى الفنون الجميلة .

فإذا كانت الفنون فى حد ذاتها نشاطاً ، وصورة متسامية ومزكّاة عن الغريزة الجنسية ، فإن لنا أن نستخدمها فى سبيل التسامى والتزكى ، لا أن نرجع بها إلى الوراء ، إلى العهد الوحشى البهيمى ، فنعيد استعمالها تارة أخرى لبث الغرائز الجامحة .

فالفنان الحقيقى هو الذى له علاقة بمثله العليا . فمثلا إن الرسام المثالى ينظر إلى الطبيعة وإلى نفسه على ضوء المثال . ولذا فهو ينقد الطبيعة ، لأن المثال فى نظره أسمى وأعلى وأجمل من كل شىء . إنه ليس بقانع بهذا المحيط ويحاول أن يخلق له محيطاً أكثر موافقة لخيالاته وأشد مطابقة لمثاله . فالفنان ينظر دائماً إلى عالمه بالمقارنة مع مثاله . وطبيعى أن العالم الذى ليس من صنعه وإرادته لا يتفق وآماله المتمركزة على المثال والمتوجهة إليه . فهو يحاول أن يخلق له عالماً يلائمه كى يعيش فيه بالطمأنينة . فالفنان يعيش فى عالم فنه الذى هو مصنوع من صميم آماله العاطفية ومن خيالاته وقريحته وتصوراته والذى هو عالمه الحقيقى ، كما يقول الشاعر الفارسى :

«فى تلك الديار البلاقع ، سئمت من المدارس والصوامع . وأحن شوقاً إلى محيط فى خارج هذا العالم ، كى أطرح تراباً على رأسى من فراغ بالى وطيبة قلبى » .

فالفنان عندما يسأم من عالمه ، يخلق له عالماً يأوى إليه ، ويكون عشاً لحاضره ، وصرحاً لمستقبلنا نحن . وفى هذا يقول « بيدل » الشاعر العجمى الكبير :

« اليوم كانت أبواب الفردوس مفتوحة لنا على مصاريعها . ولكن بسبب الملل والتسويف قلنا غداً . » فهو يتألم ويأسف لأنه سوّف وقصّر فى عمله الإنتاجى وبناء عالمه الحقيقى الذى يلائمه .

فمثلا إن المصور الذى يصوّر النيل ، إذا كان يريد اتباع الطبيعة فالأحسن له أن يأخذ له صورة فوتوغرافية ملونة . ولكن الرسام يحاول أن ينقد الطبيعة والمحيط الذى لا يلائمه . وفى نفس الوقت يحاول أن يجبره ويصلحه على نموذج مثاله المخصوص كى يتلاءم وحياته .

ولذا فهو يرسم النيل بألوان تلائمه ، وباتساع يوافق تخيلاته . وقد تكون فى الرسام نزعة من السادیزم أو الماسوكيزم ، فيخلق فى النيل صخرة أو صخرات ناتئة ، أو دوامات عميقة ، وقد يرسم زوارق تغالب الانقلاب والغرق ، وقد يزيل عن شاطئيه بعض الأبنية والأشجار، ويرسم بدلا منها شمساً محتقنة الصفحة مشرفة على الغروب تودّع الرسام بالكآبة. كما أن للرسام الخيار والقدرة، بمقتضى مثاله، على أن يغرب الشمس من وراء هضبة اصطناعية خيالية على شاطىء النيل ، وعلى الهضبة مشنقة . وله الخيار أيضاً — حسب ميوله الطبيعية وتخيلاته — أن يخلق نيلا هادئاً بألوانه الزاهية وأشجاره المزهرة ، وعلى صفحته الصافية الهادئة لنشات كبيرة مزينة تحمل جموعاً من الفتيات والفتيان يعزفون ويرقصون ، بألبستهم الرشيقة الصارخة الألوان ، بينما الشمس من أعلى الأفق تشرق عليهم بابتسامة دافئة تشاركهم طربهم وسرورهم .

فالفنان — طبقاً لمثاله الخالق — هو أول من يحاول تجديد الحياة ، وإصلاح المحيط ، وهو الذى يستطيع أن يقودنا إلى عالم أكثر صلاحاً ومناسبة . فالفنانون كالفرقة التى تمهد الطريق، يفتحون الأبواب ، ويعبّدون السبل أمامنا، كما فتح (جول فيرن) الطريق فى الجو وفى أعماق البحار .

إن الشاعر ، حينما يبالغ فى تصوير المراتع والأطلال والأنهار ، يكون فى الحقيقة جابراً للطبيعة وناقداً لها . وحينما يمـــدح ملـكا ويخلع عليه صفة الملائكية فإنه ينقدنا بغرائزنا ويجبر شخصيتنا بالصفات الملائكية . وكذلك النحات الذى نحت رمسيس الثانى المشرف على ميدان رمسيس فى قلب القاهرة ، فإنه حينما ينظر إلى مثـاله وإلى روح ذلك الفرعون الجبار المـارد فإنه ينقد قامته الطبيعية بالنسبة لعظمة روحه القوية ويجبره بهـذه الأبعاد المترامية ، كما ينحت الفنان ملـكا جباراً ذا بأس وبطش، على شكل أسد وبحجم كالجبل — فهو ينقد ويجبر بنيته الجسمانية الصغيرة بالنظر إلى روحه الكبيرة ، كما ترون ذلك فى تمثال أبى الهول .

فالأهرام ، والموميات الفرعونية المحنطة ، ومراكب الشمس ، كلها نقد للحياة الفانية ومحاولة لجبرها بالخلود . فهذا النقد بالفناء ، والجبيرة بالخلود ، فتحا طريق الخلود أمام صلاح الدين الأيوبي ومحمود الغزنوى ، ولكن بطريقة أخرى .

فالفنان المسلم يعلم حق العلم أن الفن ليس تقليداً للطبيعة ، كما زعم ارسطو ، ولا هو تسلية ولهو محض ، كما زعمت طائفة أخرى الكتّاب . بل إن الفن عند المسلم كما كان وقت ميلاده جبيرة للنشاط غير المطلوب فى الغريزة الجنسية ، كما أنه لا يزال محافظاً على طبيعته الجبرانية وكابحاً لجوح الغرائز الدنيئة ، ويحوّل قواتها وشلالاتها الدافقة واندفاعاتها الطاغية إلى مسالك الخير ومطالع النور .

فالشاعر الحقيقى الذى هو تلميذ للرحمن ، هو الذى يوجه النشاط الفائض عن الغريزة التى تحاول جاهدة أن تشغل منطقة أكثر اتساعاً وأبعد حدوداً من حدودها الطبيعية والمشروعة — إلى وجهة نقد الطبيعة والحياة ، ويخلق بتخيله وبضوء مثاله أنموذجاً رائعاً جديداً لمحيطنا الطبيعى والاجتماعى يضعه أمام عقلنا وفكرنا . وهذه هى فى الحقيقة سنّة الحياة الراقية الموجهة إلى الكمال والتى لا تقف عند حد .

وأنا لست أنكر الغرائز الموهوبة التى أودعها الله الحكيم فى نفوسنا . فالغرائز هى قوّتنا وغنيتنا ، وهى التى تحرك العقل الساكن بطبيعته ، وتبعث الفكر الذى يحتاج إلى المحرك . إنها الهيولى الأولى لعلومنا وفنوننا وإحساساتنا العلية ، كالغيرة الدينية والقومية والوطنية ، على شرط أن نسير فى طريقها المتسامى المزكي .

كما أننى أنكر الفكرة التى تزعم بأن النفس والغرائز ينبغى أن تُقتل وتهجر وتدسى . فقتل الغرائز أو تدسّيها هو قتل للنفس الإنسانية وتدسّ للعلم والفن والعواطف السامية وللخلق الإنسانى الكريم وخانقٌ للعقد والضلالات . بل إن علينا أن نربى غرائزنا ونسمو

بها ونزكيها بالعلوم والفنون ، كما قال تعالى (ونفس وما سوّاها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) .

* * *

وختاماً ، أخواتى وإخوانى ، أشكركم أجزل الشكر ، وأطلب منكم العفو لأننى أطلت عليكم ، وأضعت وقتكم ، الثمين وألقيت عليكم قولا ثقيلا .

وإنه لواجب علىّ ، فى هذه المناسبة الكريمة ، أن أشكر أركان الثورة فى مصر الشقيقة ، الفتية الناهضة ، إنهم فتية آمنوا بربهم وزادهم هدى فى تجديد عهود الأخوّة الإسلامية ، كما أشكر من صميم قلبى الجهود العظيمة التى يبذلها أخى الكريم الثائر السيد أنور السادات الذى هو فى الحقيقة الخيط الذهبى الذى يربط بيننا وبين إخواننا من عرب ومن عجم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

ملاحظة : أرجو من السادة الطالبين الكرام أن ينقدوا محتويات هذه المحاضرة لاسيما النقطة التالية :

« إن الفن ليس تقليداً للطبيعة وليس لهواً وتسلية ، بل هو نقد وجبران للطبيعة والحياة . » وهذا هو رأيى الخاص الذى انفردت به والملهم من مبادىء الدين والخلق .

